اسم الدرس : تفسير سورة العنكبوت (5) | الآيات[26 : 35]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نستكمل بإذن الله عز وجل مجالس تفسير سورة العنكبوت، أو وقفات مع سورة العنكبوت.

هذه المجالس التي أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبلها منا وأن يجعلها خالصة لوجهه سبحانه وتعالى وأن يرزقنا ثواب مدارسة القرآن، وأن يرزقنا ثواب ذلك في الدنيا والآخرة، الثواب الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم (مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ...)[1]

فالإنسان يستحضر هذا الثواب، أن الملائكة تحفه، (..وتغشاهم السكينة وتتنزل عليهم الرحمة ويذكرهم الله فيمن عنده).

ويستحضر الإنسان ثواب: (تعلم آية من كتاب الله أو آيتين خير من ناقة كوماء)[2] أي خير من شيء عظيم عند أهل الدنيا!

فالإنسان لابد أن يستحضر هذه المعاني في كل مجلس من مجالس مدارسة القرآن،

- كنا توقفنا في سورة العنكبوت عند آية (٢٦) عند قول الله سبحانه وتعالى:

{فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ}

آخر مشهد توقفنا عنده هو مشهد إبراهيم عليه السلام وهو يخرج من النار سليمًا معافى، والكل ينظر بدهشة إلى هذا الموقف العجيب.

وأيضًا لم يكتفِ إبراهيم بخروجه سليمًا معافى، بل خرج وهو مستمر في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وكأنه يقدم لهم رسالة أن كل ما تفعلونه لن يؤثر في طريقي وفي سيري وفي دعوتي إلى الله سبحانه وتعالى!

ـ وهذا نموذج يُحتذى به في الصبر على الأذى في سبيل الله سبحانه وتعالى، ولدينا أكثر من موطن في القرآن كيف أن الأنبياء كانوا يتحدون أقوامهم، مثل قول سيدنا نوح في سورة يونس {فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ}، وسيدنا هود في سورة هود، ومحمد صلى الله عليه وسلم في آخر سورة الأعراف.

---

[1] ((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ .....)) (صحيح مسلم)

[2] (- خَرَجَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ونَحْنُ في الصُّفَّةِ، فَقالَ: أيُّكُمْ يُحِبُّ أنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَومٍ إلى بُطْحَانَ، أوْ إلى العَقِيقِ، فَيَأْتِيَ منه بنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ في غيرِ إثْمٍ، ولَا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنَا: يا رَسولَ اللهِ، نُحِبُّ ذلكَ، قالَ: أفلا يَغْدُو أحَدُكُمْ إلى المَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِن كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَيْرٌ له مِن نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ له مِن ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ له مِن أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإبِلِ.) (صحيح مسلم)

هذه ثلاثة مواطن حدث فيها تحدي، وكل هؤلاء الأنبياء يقولون لأقوامهم: افعلوا ما شئتم، إني مستمر على طريقي {إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ} كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في آخر سورة الأعراف.

- هنا خرج إبراهيم من النار وقال: {إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا}

تكلمنا على مسألة كيف أن الأصنام والأوثان تحولت إلى نظام متداخل من المصالح، وكيف نشأت الأوثان في جزيرة العرب، وإسقاط هذا على واقع قريش، وكيف أن الأوثان أصبحت واقعًا متشابكًا؛ أي لم يعد من السهل أن يتمكن أحد من كسر الأصنام.

ليس سهلًا في مكة عندما لا يعجب قريشًا صنم ما؛ أن تذهب وتكسره! لا، بل هناك مصالح متشابكة، فهناك قبيلة تضع أصنامها حول الكعبة؛ لأن بينها وبين قريش مصالح تجارية، وسوق يُقام، وقريش تسافر رحلتها فتعطيها هذه القبيلة الأمان على الطريق.

الشاهد: -أيًا كان التحليل- أن الأمر أصبح متشابكًا، وليس سهلاً أن يحدث تكسير للصنم.

فسيدنا إبراهيم لا يواجه هنا مجرد فكرة خاطئة، سيدنا إبراهيم هنا لا يواجه مجرد أصنام، ولكنه يواجه واقعًا متشابكًا، واقعًا معقدًا، نظامًا.. system

فحين يأتي سيدنا إبراهيم ليواجهه، فهو لا يواجه فكرة خاطئة ليصلحها، ولكنه يأتي ليهدم النظام! تمامًا كما تواجه نظامًا عالميًا، نظامًا قائمًا في دولة، فهذا أمر صعب جدًا! فهم متعجبين من أنه يريد أن يهدم الأصنام! كيف تفعل ذلك؟!

هذه الأصنام قام عليها ولاء وبراء، وتأسس عليها تعاقدات، ومصالح تجارية.. فكيف تهدمها؟! يمنع هدمها!

فلما وجد سيدنا إبراهيم أنه لا يوجد أمل،وبعد كل هذا.. قال ربنا سبحانه وتعالى: {فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ}.

فهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الذي يذكر فيه مباشرةً بعد خروج إبراهيم عليه السلام من النار معاش: {فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ}.

- لذلك، قال بعض المفسرين أن إيمان لوط كان بسبب رؤيته لهذا المشهد، قال بعض المفسرين أن إيمان سيدنا لوط به كان حينما رأى مشهد خروج سيدنا إبراهيم من النار دون أن تمسه النار!

وفي نسب –أو علاقة– سيدنا لوط بسيدنا إبراهيم أقاويل كثيرة، أشهرها: أنه ابن أخيه –أي أن سيدنا لوط ابن أخ سيدنا إبراهيم– وأن هناك علاقة قرابة بينهما.

- فقال ربنا سبحانه وتعالى: {فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ}، انتبهوا أنها ليست "آمن به لوط"! نقف هنا قليلًا، وبعد ذلك نقف مع {إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ}.

- {فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ}: بعد كل المجهود الذي قام به سيدنا إبراهيم، وفي النهاية آمن به واحد فقط! كل الحجج التي قدمها إبراهيم عليه السلام، كل النقاشات التي سبقت معنا في سورة العنكبوت بين سيدنا إبراهيم وقومه، وغيرها.. لأن العنكبوت من أواخر السور المكية –إن لم تكن آخر سورة مكية على خلاف–.

فسبق سورة العنكبوت سور كثيرة تحتوي على قصص كثيرة للأنبياء، فحينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلو الآيات على المشركين في مكة، كانت هذه السورة آخر –أو من أواخر– السور المكية.

لذلك، يوجد طريقة يسلكها بعض المفسرين عندما يشرح قصة من قصص الأنبياء، أنه يذكر المواطن التي ذُكرت فيها في القرآن كله.

وبعضهم يجتهد ويذكر ترتيب النزول، وهناك خلاف كبير في مسألة ترتيب النزول، وهل من المستطاع الوصول إليه أم لا، وهناك أكثر من ترتيب مشهور، –وهذه ليست قضيتنا الآن–، لكن بعض المفسرين يسلك ذلك، ومن أشهرهم من المعاصرين حبنكة الميداني الذي كتب التفسير معتمدًا على ترتيب النزول، ومنهم من كتب في قصص القرآن مثل فضل حسن عباس الذي كان عند شرح قصة من قصص الأنبياء يتتبع الموطن من أوائل ما أُنزل إلى آخر مشهد.

- مثلًا، نموذج قصة لوط –التي سنذكرها–: بعضهم قال أن آخر موطن ذُكرت فيه قصة لوط كان في سورة العنكبوت، ثم انتقلنا إلى القرآن المدني ولم تُذكر القصة فيه بهذا الوضوح وهذه الصراحة.

فهناك تطور في حكاية القصة، تطور في طريقة طرح القصص القرآني، هناك معلومات تكون مذكورة في السور السابقة، الذي يريد أن يتعلم تفسير قصص من قصص الأنبياء ويتتبع ذلك، هناك بعض الجهود المبذولة من المعاصرين الذين اهتموا بذلك –كمن ذكرت أسماءهم منذ قليل–.

قال ربنا سبحانه وتعالى بعد كل هذه الجهود {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} واحد فقط! تخيل أنك تبذل مجهودًا وتتعرض لأذى والنار توقد لك لأيام وشهور وتُقذف فيها بالمنجنيق، ثم يعيدك الله سبحانه وتعالى بالمعجزة البيّنة الواضحة، وفي النهاية واحد فقط الذي يؤمن بك....!

- هذه طبيعة إيمان الناس في أوقات الأزمات، لابد أن نفهم ذلك جيدًا كدعاة إلى الله، الداعية لابُد أن يُأهل نفسه أن في أوقات اشتداد الأزمة والتعذيب والاستضعاف الذين يستجيبون ويؤمنون قليلون لكن هؤلاء –الذي يؤمن في هذه الأوقات– هم الرجال.

فعدد الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في مكة قليل، لكن هؤلاء هم الذين حملوا الدين للعالم، هؤلاء هم من ضحوا وبذلوا ونصروا الدين.

فربنا سبحانه و تعالى يقول هنا أن الذي آمن بعد كل ذلك هو واحد فقط، فنجد أن في أوقات الأزمات غالبًا يكون الاهتمام بالكيف لا بالكم، بينما في أوقات الانتشار والتمكين كما قال ربنا سبحانه وتعالى في آخر القرآن {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}.

في أوقات الاستضعاف يدخلون أفرادًا، فالذين كانوا يدخلون دار الأرقم أفراد وليس أفواج، لكن الذين دخلوا في عام الوفود بعد التمكين كانوا أفواجًا، فطبيعة أوقات الأزمات قلة المستجيبين؛ فلا يستبطئ الداعية النصر أو يشعر باليأس والإحباط.

- اقرأ هذه القصة واقرأ قوله تعالى {فآمن له لوط} واحد فقط!

ليتك بعد جهدك الدعوي كله تخرج بواحد فقط لكن يكون رجلًا، وسترى كيف أن سيدنا لوط لأنه آمن في وقت الاستضعاف وآمن في وقت الأزمة؛ فسيدنا إبراهيم أرسله لأفجر قوم، أرسله إلى أفجر ناس أتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، **لماذا؟**

لأنه يستطيع أن يواجه هذا المجتمع الذي أصبحت فيه الفاحشة -كما سنشرح الأن- منتشرة بصورة عجيبة.

فإذًا كلما كان بناء الإنسان قويًا وكان متينًا في الدين كلما يستطيع أن يواجه أزمات أكبر، وهذا يحتاج اهتمامًا بالكيف، وهذا بنسبة كبيرة لا أريد أن أقول أن الأمر مطرد وكأنها والله أعلم من سنن الله سبحانه وتعالى في البشر.

لا أريد أن أقول أنها قاعدة وقانون، لكن رأيت ذلك كثيرًا أن هناك ما هو أشبه بعلاقة عكسية بين الكم والكيف، فعندما نجد الأعداد كثيرة وناس كثيرة تدخل في الدين نجد أن الكيف يقل.

والعكس عندما يكون هناك عدد بسيط تجد الكيف أكثر، كما كانت العلاقة في مكة بين النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة -وكان عددهم قليل في ذلك الوقت- كانت علاقة دار الأرقم والالتقاء ومجالس التربية بالقرآن والصلاة وقيام الليل...وطول القيام والأزمات التي كانوا يواجهوها، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن عنده حلول أخرى.

نجد الآن أكثر سؤال يتكرر من الناس: ما الحل؟ نحن في أزمات، ما الحل؟

النبي صلى الله عليه وسلم كان يمر على عمار وغيره وهو يُعذب، ويقول (صبرًا آل ياسر)، بل حتى.. بعد الهجرة بكثير لما أبو جندل جاءهم وردوه في صلح الحديبية، النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سيجعل الله لك فرجا ومخرجا)[3] فهناك أزمات، ولكن ليس عند الداعية الحل لها!

كما قال سيدنا موسى لقومه -وشرحت هذا بالتفصيل في سورة الأعراف- {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} لم يأذن الله بعد!

---

[3] (أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فيهم سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ لِعَلِيٍّ: اكْتُبْ، بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا باسْمِ اللَّهِ، فَما نَدْرِي ما بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنِ اكْتُبْ ما نَعْرِفُ باسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقالَ: اكْتُبْ مِن مُحَمَّدٍ رَسولِ اللَّهِ، قالوا: لو عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسولُ اللَّهِ لَاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبِ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: اكْتُبْ مِن مُحَمَّدِ بنِ عبدِ اللَّهِ، فَاشْتَرَطُوا علَى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ أَنْ مَن جَاءَ مِنكُم لَمْ نَرُدَّهُ علَيْكُم، وَمَن جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ علَيْنَا، فَقالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، أَنَكْتُبُ هذا؟ قالَ: نَعَمْ، إنَّه مَن ذَهَبَ مِنَّا إلَيهِم فأبْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَن جَاءَنَا منهمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ له فَرَجًا وَمَخْرَجًا.) صحيح مسلم

فهنا قال الله سبحانه وتعالى {فآمن له لوط}، أهمية الكيف في أوقات الأزمات,أنا لم أرَ أحدًا قال ذلك، فقد يكون هذا اجتهاد خاطئ والله أعلى وأعلم.

حين نتأمل في آخر سورة الأنفال، لما قال الله سبحانه وتعالى { إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا } وبعد ذلك قال { فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ }، نلاحظ في الآية الأولى لما كان الواحد بعشرة ذكر الله الأعداد: عشرين يغلبوا مائتين، والمائة يغلبوا ألف، فكان الواحد بعشرة..

في الآية التي بعدها، كان المتوقع حتى تستقر الآية في الذهن أن يقول ربنا لنا أن العشرين يغلبوا كم؟ حتى يكون الواحد يغلب اثنين؟

إذًا يغلبوا أربعين! والمائة يغلبوا كم؟ مائتين! لكننا نجد الآية التي بعدها بدأت بمائة وليس بعشرين! بدأت بمائة، وبعد ذلك المائة –في الآية الأولى– أصبحوا كم؟

المائة أصبحت ألفًا! بمعنى المائة يغلبوا مائتين والألف يغلبوا كم؟ ألفين.

فنجد أن في الآية الثانية التي فيها الواحد يغلب اثنين الأعداد زادت، والآية التي كانت فيها الواحد بعشرة الأعداد قلت، والله أعلى وأعلم، لكن هذا أصلًا حتى لو اجتهاد خاطئ في الآية، لكن هذا غالبًا يحدث، أن مع الكم يصعب الاهتمام بالكيف، لكن يفعل الله ما يشاء والله قادر على أن يهدي الناس جميعًا سبحانه وتعالى، الإنسان يبذل ما بوسعه ويتوكل على الله.

ـ نعود إلى قوله تعالى {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} من معاني اللام هنا في "له" الإيمان المطلق، استسلام تام، لما آمن له لم يضع شروطًا، لم يقل له أؤمن لك في قضايا ولا أؤمن بك في قضايا أخرى.

لا، فهو آمن والتزم بتبعات الإيمان، لذلك نجد هنا وهذا خلاف جميل بين المفسرين في قول الله سبحانه وتعالى {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}، من الذي قال "إني مهاجر"؟

حين تقرأ الآيات تجد الآيات كلها تتكلم عن سيدنا إبراهيم وفجأة ذكر {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي} من الذي قال إني مهاجر؟

هو خلاف بين المفسرين، غالب المتقدمين اختاروا أنه سيدنا إبراهيم، وبعض المتأخرين اختار أنه سيدنا لوط، وبعض المفسرين حكى القولين ولم يرجح، بل يوجد أثر عن قتادة أنه قال: "هاجرا جميعًا"، ولكن كان ممكن أن يقول "وقالا إننا" لكن لماذا أتت بالمفرد؟

وكأن الذي يعمله سيدنا إبراهيم سيعمله سيدنا لوط مباشرة، أي أن إيمان لوط عليه السلام بإبراهيم استلزم الهجرة فهاجر، استلزم الدعوة فدعا، استلزم الذهاب إلى قرية سدوم فذهب، هو ملتزم بتبعات الإيمان.

لكن أحيانًا بعض الناس عندما يدخل في الدين يضع حواجزًا، يقول لا، لن أفعل كذا! هناك بعض الأمور يقول: لن أفعلها، ولكن هناك بعض الأمور ممكن أعملها! أما هنا إيمان تام {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}.

إذًا {وَقَالَ} الأشهر والأغلب أن سيدنا إبراهيم هو الذي قال وتبعه لوط.

{ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }، القرآن المكي ومنذ فترة ليست بالقصيرة وهو يمهد للصحابة أن هناك هجرة، ومن الكتب الرائعة كتاب اسمه "منظومة الهجرة في القرآن الكريم"، لا أتذكر حتى المؤلف، وكان طبعة دار الرسالة.

وأيضًا كتاب اسمه "الهجرة في القرآن الكريم"، والكتابان جيدان، الكتاب الأول وهو "منظومة الهجرة في القرآن الكريم" تتبع كل الآيات التي أتت في القرآن فيها إشارات للهجرة ولو من بعيد، مثل مثلًا قصة أصحاب الكهف، أنهم يتركوا قومهم ويذهبوا، هناك إشارات أنكم ستتركون أوطانكم، إشارات كثيرة من خلال القرآن.

فكانت آخر سورة مكية الكلام بدأ يكون تصريحًا { إِنِّي } بالتأكيد { مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي }، وفي آخر سورة العنكبوت -كما سيأتي-، نجد كيف أن الكلام فيه تمهيد واضح للهجرة { وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ }.

فلو أنت ستهاجر وتخاف على الرزق، فانظر للدواب تتنقل والله يرزقها، نجد كيف أن العوائق النفسية المانعة من الهجرة، أواخر سورة العنكبوت تعالجها.

فهنا بدأ التمهيد للصحابة، دائمًا حين تقرأ الآيات تحتاج أن تستحضر -كما قلت قبل ذلك- معايشة واقع نزول القرآن وتسقط هذا على واقعك، الصحابة لما تلقوا هذه الكلمة ماذا كان يحدث لهم؟ ما الذي يدور في باله عندما يسمع { إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي }.

هو كان يسمع لينفذ، الصحابي كان يسمع لينفذ، فكان يضع أحد الاحتمالات المطروحة والاختيارات المطروحة أنه سيترك بلده، هو يقرأ لينفذ، فالقرآن ليس مجرد قصص للتسلية، لا، هو قصص للتأسي وللسير في نفس الطريق.

{ وَقَالَ إِنِّي } تأكيد، عزم إبراهيم هذه العزمة، وبالتالي تبعه لوط لأنه آمن به وآمن له إيمانًا مطلقًا، استسلم، { مُهَاجِرٌ } لا بد في وقت من الأوقات يحدث معارضات وموانع، كما حدث مع النبي صلى الله عليه وسلم.

فقد قال له ورقة من أول لحظة –ورقة بن نوفل– "إن قومك سيخرجونك" فقال: (أَوَمُخرجي هم؟) قال "نعم، ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي"، والعجيب أن ورقة تمنى أن ينصر الدين في لحظات الاستضعاف، قلة قليلة الذين يقفوا مع الدين في أوقات الاستضعاف، قال: "يا ليتني أكون فيها جذعًا حين يخرجك قومك"، اختار أشد لحظات الاستضعاف وتمنى أن يكون شابًا قويًا لينصر الدين، بالرغم من فهم ورقة بن نوفل لسنن الله وأن الدين سينتصر، فكان ممكن يقول: "له يا ليتني أكون فيها جذعًا حين تنتصر على قومك، حين تُفتح لك مكة"!!

لكن هو اختار لحظة إخراج قومه له، لماذا؟

لأنه يريد أن ينصر الدين في هذه الأوقات { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا }

{وقَالَ } أي إبراهيم وتبعه لوط { إِنِّي مُهَاجِرٌ } تمهيد أن الصحابة يتربون على عبادة اسمها عبادة الترك لله، أن تترك شيئًا لله، تترك وطنك، تترك بلدك، تترك مالك، تترك شهوتك، تترك شيئًا حرامًا، تتركه لله.

{ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي } ننتبه أن سيدنا إبراهيم لم يقل { إِنِّي مُهَاجِرٌ } فقط، ولكن قال { إِلَىٰ رَبِّي }!

لأن الإنسان أحيانًا يترك مكانًا، ويدّعي أنه ترك المكان للدين، ثم تُفاجأ أنه انتقل مثلًا لبلاد الكفر واستقر فيها وأولاده ينشأوا في حالة تشوه للفطرة وللدين، وهذا يحدث الآن كثيرًا من الهجرة إلى بلاد الكفر، أنت تتعجب! ألا تخاف على أولادك؟ هل تربيهم تربية صالحة؟

النبي صلى الله عليه وسلم قال أن (من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، اشعث رأسه مغبرة قدماه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار إليها يبتغي الموت أو القتل في مظانه).[4]

ومن خير الناس أيضًا رجل (يتبع مواقع القطر، يفر بدينه...)[5]، فالأول رجل مجاهد يبذل وينصر، والثاني انعزل لم يقدر على المواجهة مثل الأول، لم يكن عنده قدرة للمواجهة، فممكن أن ينعزل، لكن انتبه من التعبير، "يفر بدينه" انتبه من الباء، باء الاستصحاب (يفر بدينه من الفتن) أي يستصحب دينه معه، وليس يفر من الفتن وحسب ويترك دينه، لا.

عندما تترك مكان وتذهب إلى مكان آخر، نعم الأرض لا تقدس أحدًا؛ لكن المكان الذي ستذهب له تكون حريصًا فيه على الدين، وحين نرى تجارب الناس خاصة التي سافرت ونسمع كيف أنهم في العالم الغربي يركزون على الأطفال.

فالبلاد التي تفتح أبواب الهجرة خاصة مثل كندا وغيرها، هو عنده نقص في السكان، وعنده نقص في الأيدي العاملة، وعنده نقص في المواطن، سواء الألماني أو الكندي، فهو يهدف أن يجعل ابنك متمسكًا بهم أكثر مما يتمسك بك، يتمسك بمبادئهم أكثر مما يتمسك بعقيدتك، هو يعرف كيف يصنع الانتماء.

كثير من الحكومات يقول من يأتي لنا عنده خمسة وعشرين سنة أو ثلاثين سنة هذا عقله مغلق –من الصعب تغييره–، نحن لا نريده لذاته، نحن نستهدف أولاده، نغير فكرهم.

لذلك عندهم قوانين صارمة، وممكن أن يأخذ منك الأبناء لو أنت تعديت قوانين معينة.

- فالإنسان يحتاج حين يقول "إني مهاجر" يطبق معه تكملة الجملة "إلى ربي"، لمن ستهاجر؟ (فمن كانت هجرته لدنيا يصيبها)، هل ممكن شخص يهاجر لدنيا؟ نعم!

النبي صلى الله عليه وسلم قال (لأعْمَالُ بالنِّيَّةِ، ولِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فمَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسولِهِ، ومَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ

---

[4] (مِنْ خَيْرِ مَعاشِ النَّاسِ لهمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنانَ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللهِ، يَطِيرُ علَى مَتْنِهِ، كُلَّما سَمِعَ هَيْعَةً، أوْ فَزْعَةً طارَ عليه، يَبْتَغِي القَتْلَ والْمَوْتَ مَظانَّهُ، أوْ رَجُلٌ في غُنَيْمَةٍ في رَأْسِ شَعَفَةٍ مِن هذِه الشَّعَفِ، أوْ بَطْنِ وادٍ مِن هذِه الأوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلاةَ، ويُؤْتِي الزَّكَاةَ، ويَعْبُدُ رَبَّهُ حتَّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ، ليسَ مِنَ النَّاسِ إلَّا في خَيْرٍ.) صحيح مسلم

[5] (يُوشِكُ أنْ يَكونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بهَا شَعَفَ الجِبَالِ ومَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ.) صحيح البخاري

إِلَيْهِ.)[6]، وغالب العلماء يضع هذا الحديث في أول كتب العلم، أول كتب التعليم، لتحدد نيتك من البداية، هذا العلم لكي تحصله ستتعب وتهاجر وتبعات الالتزام بهذا العلم أنك ستتعب وتهاجر، فأنت من البداية يجب أن تحدد هجرتك إلى أين؟

إلى الله ورسوله، أم لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها؟ فهجرته إلى ما هاجر إليه.

{وَقَالَ} إبراهيم عليه السلام وتبعه لوط {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}

عندما تقرأ كتب التاريخ والسير أو الكتب التي اهتمت بالهجرة ابن عاشور يقول معنى جميل جدًا يقول: "فكانت هذه أول هجرة في الدين ولذلك جاء النص عليها هكذا " هذه أول هجرة في الدين.

أنا أريد منك أن تستحضر دائمًا وأنت تقرأ آيات سيدنا إبراهيم في القرآن قول الله سبحانه وتعالى {واتخذوا مِن مَّقَامِ إبراهيم مُصَلًّى}، مشهد أنك واقف تصلي بعدما طفت -ربنا يرزقنا وإياكم الحج والعمرة- حول الكعبة تذهب عند مقام إبراهيم وتصلي ركعتين، وأنت ترى الحجر وكيف أن قدم سيدنا إبراهيم تركت أثرًا في الحجر لكي يُنشر التوحيد في الأرض.

سيدنا إبراهيم طاف كما سنرى الآن، بعض الأقاويل أنها هجرات وليست هجرة واحدة، تنقلات إبراهيم لنشر الدعوة ومن دون مواصلات، وكيف أنك تقف عند المقام وتكبر وتقول في الركعة الأولى {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} لا يصح بعد جُهد سيدنا إبراهيم أنك تعود إلى الكفر.

وفي الركعة الثانية {اللَّهُ الصَّمَدُ} الدالة على التوحيد، إقرار منك: **أنا على خُطَى إبراهيم في نشر التوحيد في الأرض، أن تستحضر هذه المعاني.**

*قال -ابن عاشور- أن سيدنا إبراهيم هاجر من العراق وأن المناظرة مع الملك الظالم كانت في العراق، فهاجر إلى فلسطين وبعضهم قال هاجر إلى الشام أولًا ثم نزل إلى فلسطين وتزوج بسارة.

*ثم ترك لوطًا هناك وكانت قرية سدوم في جنوب فلسطين ناحية الأردن، وذهب إلى مصر وحدثت المشكلة مع الملك الظالم هناك مع سارة أيضًا، وأهداه هاجر.

[6] (لأَعْمَالُ بالنِّيَّةِ، ولِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسولِهِ، ومَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إلَيْهِ.

*ثم عاد بهاجر وسار إلى فلسطين وتزوج هاجر هناك وأنجبت إسماعيل.

*ثم أخذ إسماعيل وهاجر إلى الحجاز، ثم وضع هاجر وإسماعيل وعاد مرةً أخرى إلى فلسطين.

*ثم عاد مرةً أخرى إلى الحجاز، لمَ ؟ ابتلاءً ليذبح إسماعيل.

*ثم عاد مره أخرى إلى فلسطين مع إسحاق ثم يعقوب.

*ثم عاد مرةً أخرى إلى الحجاز لبناء الكعبة

وظل سيدنا إبراهيم هكذا يتنقل هذه التنقلات بعضهم عدها ست هجرات، هل تتخيل؟!

- تخيل جهد سيدنا إبراهيم لنشر الدين والواحد من الشباب يتكاسل أن يحضر درسًا في آخر الشارع، أو في الدعوة إلى الله لكي يتعلم أو يدعو إلى الله، تجده يكسل يسافر.

انظر إلى سيدنا إبراهيم ينتقل ما بين دُول، وفي كل مكان لا يتعلق بشيء، فيذهب إلى مصر تُؤخَذ منه زوجته ثم تُرَد إليه مع هاجر، حسنا فليتوقف عن الدعوة فالدعوة جعلته يلقى في النار في العراق، وكانت ستضيع منه زوجته في مصر فليجلس في مكان مستقر، ولكنه يستمر في الدعوة إلى الله ثم يترك هاجر وابنه إسماعيل الطفل الرضيع في الصحراء، لا يتعلق بشيء، الإنسان يتربى على هذا أنه غير مُتعلق بشيء.

لذلك كان هذا المعنى من المعاني المحورية التي تربى عليها الصحابة في الغزوات، الصحابة في مكة: واقع مكة لم يكن واقعًا استقراريًا، لم يكن هناك شيء يجعلهم يتمسكون بمكة، كان تعذيب وأذى وعدم استقرار فكانوا دائمًا يطلبون الجهاد، "ائذن لنا نقاتل"، "ائذن لنا بالجهاد"، "نريد أن نقاتل"، لماذا؟ لأنه في كل الأحوال يُضرب، حتى لو لم يجاهد فهو ضعيف ويضرب ويعذب.

فلما هاجروا من مكة إلى المدينة وحدث نوع من الاستقرار في المدينة كان لابد أن يكون هناك ابتلاءات أخرى تمنعهم من الإلتصاق بالأرض {مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ}

فكانت الغزوات تحدث بتقدير من الله، وكانت كل غزوة تربي الصحابة على معاني كثيرة لكن هناك معنى محوري، مثلًا ممكن غزوة كاملة تحدث ولا يكون فيها قتال أو قتال بسيط كغزوة الأحزاب أو تبوك، وكان من الحكمة أن هذه الغزوات تربي شيئًا عند الصحابة.

مثلًا غزوة تبوك من المعاني العظيمة التي تربى عليها الصحابة في غزوه تبوك، ولم يحدث فيها قتال ضخم لكن تربى على معنى أنه يترك كل شيء في أي وقت، تخيل هم منتظرون الثمار والجو حار جدًا وفجأة يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ويخبرهم سنجاهد، حسنًا ننتظر أسبوعين ثلاثة، فيأمرهم الرسول: سنخرج الآن نجاهد ،أين ؟ الروم في مكان بعيد.

ساعة العسرة هي لحظة، أنك تتربى على هذا المعنى: أنك ممكن تكون ماشيًا وتترك كل شيء في لحظة، **ألا تتعلق بالأرض.**

واقعنا الحياتي بعد استقرار الدول والحدود، أصبح هناك ارتباط قوي بالأرض، فأصبح الإنسان ثقيل متمسك بالأرض، أصبح هناك ثِقَل في طلب العلم أو الدعوة إلى الله، متمسك بالأرض يَخْلُد إلى الأرض.

{وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي} إلى حيث أمرني ربي، أنظر أين أمرني الله أن أتجه فأتجه مباشرة.

{إِنَّهُ} سبحانه وتعالى {هُوَ الْعَزِيزُ} الذي ينصر أولياءه، الله سبحانه وتعالى قادر علي نُصرة أولياءه بكلمة ولكن هذا ابتلاء {ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ}، {الْحَكِيمُ} في تقدير هذه الابتلاءات والأمور .

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}

أبدَله الله سبحانه وتعالى ذريةً صالحة لما ضحى في سبيل الله وترك قومه وأعرض عنهم أبدله الله سبحانه وتعالى الذرية الصالحة.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} وبعض المفسرين قال تكرار البشارة بيعقوب خلف إسحاق لأن إسحاق رُزق بيعقوب في حياة إبراهيم، قال بعضهم ذلك.

{وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ} أي في ذرية إبراهيم، الهاء تعود على سيدنا إبراهيم، {النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} كل الأنبياء بعده جاؤوا من نسل إبراهيم، إما من سلالة إسحاق كل أنبياء بني إسرائيل إلى آخر لحظة بعد استشهاد سيدنا زكريا وسيدنا يحيى وبعد رفع عيسى عليه السلام توقفت سلسلة أنبياء بني إسرائيل.

ثم جاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم من نسل إسماعيل وحدث انتقال وتحويل للقبلة، انتقال للخلافة انتقال للأمانة، حملها العرب بعد ما كانت في بني إسرائيل، والتي من الدلالات عليها تحويل القبلة، الانتقال من المسجد الأقصى إلى الكعبة.

{وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا} قال الطبري أي: ثواب بلائه فينا، الأمور التي تعب فيها لأجل الله لم تضِع عند الله، بل أخذ أجرها في الدنيا.

ما الأجر الذي أخذه في الدنيا ؟ اختلف المفسرون :-

- بعضهم قال الولد الصالح.
- بعضهم قال الزوجة الصالحة.
- بعضهم قال أن كل الأمم تنتسب إليه وتحبه، وإن كل الأمم تتبع إبراهيم عليه السلام، كل الأديان تتسابق في الانتساب إلى إبراهيم ويدعون الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام.
- الثناء الحسن {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ}، من بين كل الأنبياء ونحن في الصلاة نصلي على إبراهيم ثم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم .
- {واتخذوا مِن مَّقَامِ إبراهيم مُصَلًّى}

فجهد سيدنا إبراهيم أبقى له هذا الثناء الحسن في الدنيا، وهذا الأجر في الدنيا لم يُقلل شيئًا من أجر الآخرة {وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}.

- بعض العلماء قال ما معنى: إنه لمن الصالحين بعد {وآتَيناهُ أجره في الدنيا}؟

بعض أهل العلم قال: المعنى أن الأجر الذي أخذه في الدنيا لم يقلل أجر الآخرة؛ بل أعطاه الله الخيرات في الدنيا وفي الآخرة.

ثم بعد ذلك قال الله سبحانه وتعالى {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} نجد هنا إدخال قصة سيدنا لوط بعد سيدنا إبراهيم لأن هذا امتداد دعوة سيدنا إبراهيم، إن الإنسان يفرح أنه يبني إنسانًا، يبني داعية، يبني كادرًا، يبني عالمًا، فيكون امتدادًا له فيفخر به، لذلك حين يعطي عالم وقت طويل لعالم آخر فيكون هذا العالم امتدادًا له؛ حتى لو خالفه بعد ذلك فسيظل امتدادًا له، لمجهوده.

فهنا دائمًا تأتي قصة سيدنا لوط بعد سيدنا إبراهيم، حتى الملائكة لما جاءت تعذب قوم سيدنا لوط ذهبت أولًا إلى سيدنا إبراهيم تعطيه البشرى، ثم ذهبت إلى قوم لوط لأنه امتداد نفس الدعوة.

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} هنا سيدنا إبراهيم لما استقر في فلسطين توجد تحليلات تاريخية، ونحن ليس عندنا دلالات صريحة، تأتي تقرأ في البداية والنهاية لابن كثير أو أي كتب تهتم بهذه الحقبة من الزمن يكون فيها نوع من الاجتهاد بعض الشيء، أو حتى الرجوع إلى بعض كتب الإسرائيليات مثلًا، أو حتى المكتوب في التوراة، لكن أنت لا تصدق هذا على أنه يقين.

بعضهم قال إن هذه المنطقة التي شمال قرية سدوم قبل أن يبعث سيدنا إبراهيم سيدنا لوط إلى سدوم كان فيها نوع من التعددية الدينيه، لذلك قالوا المكان الوحيد الذي لم يحدث فيه إشكال مع سيدنا إبراهيم كما حدث معه في العراق وفي مصر كانت هذه المنطقة، والحجاز لم يكن فيها أناس أصلًا، وهو استقر فيها قبل الناس والناس جاءت على ماء زمزم، الذي جاء بركةً مع ضرب جبريل عند قدم إسماعيل عليه السلام.

- فقالوا إن هذه المنطقة كان فيها نوع من الانفتاح والتعددية وكان فيها كثير من العبادات والأديان الباطلة، ودائمًا مثل هذا الواقع ينتشر فيه أيضًا نوع من الفاحشة، هذا الانفتاح يصنع نوعًا من الفاحشة.

فكانت توجد قرية في الجنوب التي هى قرية سدوم أُرْسِل لوط إليها، سواء بأمر مباشر من ربنا سبحانه وتعالى أو أن سيدنا إبراهيم بعثه بأمر من الله لإبراهيم عليه السلام، المهم أن سيدنا إبراهيم أرسل لوطًا إلى هذه القرية.

تخيل أنك تعرف أن مكانًا مليء بالفاحشة، كل الناس الموجودة فيه الفاحشة عندها أصبحت شيئًا مستقرًا، كما قلت دائمًا نستحضر أن سورة العنكبوت من أواخر السور المكية، والقصص القرآني يوجد

منه ما تكرر في مكة وتكرر في المدينة، وقصص كان ينزل في مكة فقط، ويوجد قصص جزء منه كان يأتي في مكة وجزء منه كان يأتي في المدينة، كل هذا بالتأكيد له دلالات.

فمن أواخر السور التي تطرح قصة سيدنا لوط سنجد أنها تم تخصيصها بكلمات لم تأتِ إلا في هذه السورة، فاختيار سيدنا إبراهيم أن سيدنا لوط يذهب لهذا المكان وبمفرده، كما بعث النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا مصعب وحده، أن تعتمد على رجل، أحيانًا تظل تتعب مع فرد وتبذل معه مجهود وعلم ودعوة وتربية و... و... ثم تريده أن ينطلق ويتحرك لوحده، تجده مع كل مشكلة صغيرة يتوقف -لا يعرف كيف يتصرف-.

مثلًا مشهد شخص كان راكبًا سيارة وتعطلت منه فطلب منك دفعه؟ قلت له نعم تفضل، وأنت تدفعها والرجل ركب السيارة وجدها تسير فاكتفى بذلك، غير محتاج أن يدورها فأنت تدفعها وهو ينعطف يمينًا وشمالًا ويعطي إشارة، يا أستاذ! لم لا تدور السيارة؟

هو تكاسل أن يدورها لأنها تسير، فتوجد أناس تتعود على الدفع، هو يريد كل حياته تُدْفَع، أي مشكلة صغيرة تقابله يريد أن أحدًا يحلها له بتفاصيلها، يريد أن أحدًا يحل له تفاصيل التفاصيل، لكن أنت ستأخذ قرارات في حياتك، هذه قرارات مصيرية، أنت مَن سَيُواجِه، أنت من سَيُضحي، أنت مَن سيفعل هذا، أنت مَن سيأخذ القرار، أنت مَن تُحدد درجتك، أنت من تحدد المكانة، أنت من تُحدد التضحية، أنت مَنْ يأخذ القرار.

الذاتية أصبحت تقل لدينا وشرحت هذا من قبل أظن في "أنماط التدين المعاصر" أو غيره، بسبب أنه تعود من لحظة الحضانة أنه يوضع في مكان، وهذا المكان ينقله لمكان، وهو شخص سلبي يتنقل من مكان لمكان كما رُسِم له ولا يأخذ قرارات في حياته، فهذا انتقل إليه في الدين أنه أصبح يريد أحدًا يضعه في مكانه في الدين.

فانظر كيف أن سيدنا إبراهيم أرسل لوطًا بمفرده، وكيف أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث مصعبًا، حسنًا ومصعب رضي الله عنه ماذا سيفعل؟! ماذا سيفعل في المدينة وحده، بلد جديدة وكان بدأ الإسلام نسبيًا ينتشر فيها بصورةٍ ما، -والذي يريد أن يقرأ بيعة العقبة الأولى والثانية لكي يعرف تفاصيل الأحداث وكيف ذهب سيدنا مصعب-، وكان معه الوحي وحسب، أي ذاهب لأقرأ عليك القرآن،

وكيف أنه –مصعب– كان في قمة الترف، كان يتزين ويضع العطور، وضحى بكل هذا وهاجر إلى المدينة ودعا إلى الله سبحانه وتعالى.

كيف في سنةٍ كاملة لم يحتج أن يرجع للنبي صلى الله عليه وسلم فيها، كيف في سنة كاملة لم يحتج في كل مشكلة أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم، مثلًا أنا هذا الشهر واجهني عشر مشاكل سأعود لأعرف كيف الحل، كيف استطاع أن يواجه المشاكل طوال هذه السنة.

أنت محتاج أن تتعلم في زمننا هذا: (خذل عنا ما استطعت) تَصَرّف.

كثير من الناس فعلًا عندها طاقة وعندها إمكانيات لكنه لا يعرف كيف يُوَظف نفسه، منتظر أن أحدًا يوظفه، منتظر أن أحدًا يخلق له مكانًا أو ثغرًا، أنت تحتاج أن تفعل هذا لنفسك، للأسف أنت الذي تحتاج أن تفعل هذا لنفسك، قد يكون ما تطلبه هو الأفضل والأحسن لكنه غير موجود، تصرف (خذل عنا ما استطعت).

- فلوط عليه الصلاة والسلام انطلق وذهب بمفرده.

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} بدأت قصة سيدنا إبراهيم أيضًا: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} بقول في الدعوة، وسيدنا لوط بدأ بنفس البداية، تربى على جُهد إبراهيم في الدعوة، فذهب وفعل نفس الجهد مباشرةً لم يخف من قومه فواجههم: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ}.

{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ} هذا التفصيل لم يأت إلا في سورة العنكبوت:

-تأتون الرجال.

-وتقطعون السبيل.

-وتأتون في ناديكم المنكر.

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ }

- سيدنا لوط قرر أنه يواجه المشكلة المنتشرة في المجتمع بالإضافة إلى الشرك، أحيانًا تكون فاحشة منتشرة وشهوة منتشرة فتجد الداعية خائف من أن يتكلم فيها، فقد انتشرت انتشارًا ليس عاديًا كما سنشرح بالتفصيل، كل كلمة في القرآن لها دلالة لكي تكون مستحضرًا الواقع.

- كيف أن سيدنا لوط قرر يواجه الشهوة التي تحولت إلى نظام كما أن سيدنا إبراهيم قرر يواجه العقيدة التي تحولت إلى نظام، كما أن الأوثان تحولت إلى مودة بينهم وتحولت إلى نظام مستقر متشابك معقد، الشهوة أيضا أصبحت هكذا.

لوط عليه السلام قال لقومه مباشرة {إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ} سماها فاحشة، الإصرار على تسمية الأشياء بمسمياتها لذلك تجد الناس –وهذا واقع هذا الزمن ممكن من ٤٠ أو ٥٠ سنة لم يكن موجودًا– الآن فعل قوم لوط والشذوذ ممنوع أن تتكلم عنهم، في بعض الدول ممنوع، وتُحاكم وتُقَاضى إذا تكلمت عنه، نظرة ازدراء لأحد يرتكب هذه الفاحشة تُعَاقب عليها، أن تقول عليها فاحشة هذه الآن في بعض الدول مصيبة.

هم استمروا في جُهد سنين لكي يصلوا لهذا الوضع، بدأوا بمنظمات حقوقية مُعينة تدافع عن هذه الفاحشة، وبعد هذا أنشأوا مؤسسات للدفاع عن الأفراد، وبعدها وضعوا قوانين في الدستور نفسه، ثم بعد ذلك نشر هذه الثقافة للعالم وعمل هذا في أفلام ومسلسلات، وسنرى كيف أن القرآن أشار إلى ذلك أن هذا ممكن يحدث في مجتمع، وكيف يمكن أن تنتشر فاحشة بهذه الطريقة.

كنت أسمع لـ "عبد الوهاب المسيري" –مفكر وعالم اجتماع– وهو يحكي لما كان في أمريكا أظن كان في الستينات وكان بدأ يستحضر أن هذا المجتمع سيؤول به الأمر إلى أن ينتشر فيه الشذوذ بدراسة اجتماعية معينة، وكان يتكلم مع مشرفه ويقول له أنتم سينتشر عندكم الشذوذ، يقول له: ما الذي تقول؟ فيؤكد له –عبد الوهاب المسيري– رأيه، وكان المشرف يناقشه وكان أحد المحكمين على الرسالة أصبح شاذًا فيما بعد، فقال له: ألم أقل لك أنكم ستصبحون هكذا، استحضار أن هذه ثقافة تحدث وسنقول الآن بعض التحليلات لهذا.

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ} الإصرار على تسميتها الفاحشة، الآن بعض الناس يُحاول أن يُهون الموضوع فيقول هذا مرض، وتجد دراسات كثيرة تحاول أنْ تثبت أنّ هذا خلل جيني والإنسان لا دخل له فيه، وبالطبع هذا لم يثبت قطعيًا حتى الآن.

ويوجد مقطع لا أتذكر الأخ الذي قام به كان على قناة يوتيوب اسمها "الدعوة الإسلامية"، وهي لـ "محمد شاهين التاعب"، وإن كان الأخ متخصص في الرد على النصارى والإلحاد لكن استضاف شخصًا قدم مقطع فيديو ربع ساعة رائع في تتبع كل أو غالب الأبحاث العلمية التي ادّعوا أن الأمر خلل جيني ورد عليها من كلامهم وأنها ليست خللًا جينيًا ولا شيء مما يدعون.

سيظل عندنا اسمها فاحشة، فالذي يُبتلى بذنب لا داعي لأن يشرعنه، كما في سورة الأعراف إذا فعلوا فاحشة يقولوا أول شيء: هذا تقليد مجتمعي عادي {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ} ثم تصبح دينًا {وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} وهذا الذي يحدث الآن، ولكن هو لا يقول والله أمرنا بها كشرع لا بل كقدر ونحن ليس لنا دخل.

سيظل اسمها فاحشة ويظل لها عقوبة صارمة، لابد أن يظل هذا الاسم موجود وهناك ممانعة الآن لهذا الاسم، بل ممكن شخص يكتب نقد لهذه الفاحشة على الفيس بوك فيُمْسح، الفيس بوك يحذفه، ممنوع أن تتكلم عنها بسوء.

بل رأيت مقطعًا أيضًا يتكلم كيف أن بعض الأطباء النفسيين في الغرب الذي يحاول يعالج المصابين بهذه الفاحشة أيضًا لو أقنع الذي يفعل الفاحشة بأنه مرض وسيتم علاجه يُعَاقَب الطبيب، المفروض لا يقول عنه أنه مرض، ولكن يقول له كما تشاء تحب هذا أهلًا وسهلًا، تحب أن تتغير وتكون طبيعي.. بل لا يقول له طبيعي لأن معناها أن الثاني غير طبيعي، لا، فيقول له: هل تحب أن تكون هكذا أو هكذا؟ كما تشاء.

لكن لا يقول هذا مرض أو شيء غير طبيعي، و للأسف هذا أصبح عندنا ويوجد أطباء نفسيين يتبنون هذا في بلادنا، لأنه خائف أن يواجه المجتمع، يقول أنا لا أستطيع أن أقول له أن هذا كذا، أنا ممكن أقول له أنا ممكن أن أساعدك إذا تحب أن تتغير لكن لا أفرض عليه هذا.

فهذا أمر أصبح الآن يدعم دعمًا عالميًا ويفرض على دول.

فالشاهد الإصرار على تسميتها فاحشة {إنكم} تأكيد، بعد آية {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ} (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)، أن هذا أمر مخالف للفطرة، جمهور المفسرين قال: { مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ } معناها: لم يأت أحد بهذه الفاحشة من قبل.

وخالفهم حبنكة –واستغربت ذلك– وقال أن السبق هنا ليس معناه السبق الزمني، ولكن السبق هنا معناه الزيادة في الفاحشة، ويقول أن الشذوذ أو هذا الأمر كان موجودًا منذ زمن.

وهذا أمر لا أظنه صحيحًا، لأن حتى الفاحشة تسمى باسمهم، حتى أن في كتب الفقه مسألة اللواط أو اللوطية تذكر بهذا الاسم، ينتسبون إليهم.

مسألة {مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ} أن الشهوات ليس لها نهاية، مثلها مثل الأفكار الباطلة، أنت لم تكن تتصور في يوم من الأيام أن يعبد أحد فأرًا مثلًا! أو يكون ماشٍ مثلًا، مسافرًا، فينظر فلا يجد الصنم معه، نسي الصنم في البيت، فيأتي –وأنا أحدثك عن شيء كان يحدث مع العرب– يأتي بالقليل من الطين، ويضع القليل من اللبن عليه أو يدع دابة تبول عليها ويصنع صنمًا يكون معه إلى أن يعود فيحُضر صنمه! فهل تتخيل ذلك؟ هذا كان يحدث!

وإذا حاولت أن تهدمه يقول لك: أنا لا أسمح لك! فتقول له: أنت الذي صنعته! فتتعجب! لذلك سيدنا إبراهيم قال في الآية: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} أنت صنعته بنفسك منذ قليل!

وهكذا كما أن الأفكار الباطلة ليس لها توقعات، والشيطان يظل يزين الباطل، { وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ } فالشيطان استطاع أن يزين لواحد أن يقتل ابنته، أي أن الشيطان وصل لمرحلة بعيدة من القدرة على التزيين، وكذلك الشهوات –ليس لها نهاية–.

- وهذه هي الخطورة في التناول مع مسألة الشذوذ، أو هذه الفاحشة، مسألة تناولها بمجرد العلم التجريبي، هناك شيء يسمى شيطانًا، ينشر الشهوات، ويخدع الإنسان، ويزين له، وقد يبتلى فعلًا الإنسان بمثل هذا الأمر بسبب نزغات الشيطان، وبسبب الإيغال الذي نحن فيه في الفاحشة، وانتشار الشهوات، وهذا تطور طبيعي يحدث في أي مجتمع تنتشر فيه الفاحشة.

انتبهوا معي لهذا المعنى: الشهوة ليس لها نهاية، فكيف تنبأ المسيري بانتشار هذا في الغرب؟ لأنه مجتمع مفتوح، كان يقول: أنا كنت أتعجب كيف يكون الزنا مباحًا مطلقًا في مكان، وكل واحد معه girl friend صاحبته، والدنيا مفتوحة تمامًا على مصراعيها، كل شيء مفتوح مطلقًا، ويكون في الجامعة كل شيء مباح، ومع ذلك كله يحدث حالات اغتصاب؟؟!

هو كان غير قادر على فهم ذلك! لماذا يحدث هذا الاغتصاب؟ لأن الشيطان دائمًا يقول لك أن هناك شيئًا ممنوعًا، جرب شيئًا آخر، فمن وقع في زنا يريد أن يجرب الاغتصاب، يقع في الاغتصاب فيجرب الشذوذ، ويمكن أن يقع في الفاحشة مع الحيوانات.

الشيطان يظل يزين... يزين... يزين... وكلما تنزل لدركة، يزين لك التي بعدها، هكذا يحدث تطور في المعصية عند المجتمعات، وكنت شرحت هذا أيضًا في تفسير سورة الأعراف، كيف كان يحدث تطور في المجتمعات تجاه الفساد.

فالمجتمعات دائمًا تفكر في فكرة الـ "ما بعد"، تجد أن المجتمعات الغربية سواء على مستوى الأفكار ومستوى العقائد أو الأيديولوجيات أيا كان لا تنتهي، فكرة الحداثة ثم ماذا؟ "ما بعد الحداثة"، فكرة الشهوة فتخرج فكرة "الجيرل فريند" الصاحبة والزنا والانفتاح، ثم بعدها تخرج فكرة "الشذوذ" وبعدها "الحركة النسوية"...، ولا تزال الفكرة تخرج وراء الفكرة.

ولا أريد أن أبتعد كثيرًا عن الدرس، لكن من يريد أن يقرأ بحثًا قرأته جيد جدًا في الأسس الفكرية التي أدت لانتشار الشذوذ في الواقع الذي نعيشه هناك كتاب للأستاذ عمرو عبد العزيز هو كتاب لم يكتمل بعد، الكتاب كاملًا اسمه "دين المؤتفكات" انتهى من الفصل الأول بعنوان "عارض ممطرنا" ونشره، بضع وأربعون صفحة، والنصف الأول هو المهم.

اختار خمسة أسس، هي الأسس الأساسية التي تسببت في انتشار هذه الفاحشة في المجتمع الحالي، قال أن هناك خمسة أسس معينة، الإصرار عليها هو ما أدى لذلك، هذه الأسس هي: التطور والفردانية والليبرالية والنسوية والحداثة وما بعد الحداثة، اختار خمس أسس شرحها، فمن يريد أن يناقش الموضوع فكريًا وكيف هذا أدى للواقع الغريب الذي نحن فيه.

{مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ} سيدنا لوط هنا يقول لهم، وهذا مهم جدًا كيف كان سيدنا لوط راصدًا للواقع، مهم أن يكون الداعية على دراية وفهم، لأن أحيانًا الداعية يتكلم في قضايا الواقع وهو لا يعيشها أساسًا.

فربما تذهب لداعية تكلمه في قضية اللواط أو الشذوذ يقول: كيف؟ لا يمكن أن يكون هذا موجودًا! أو مثلًا قضية الإلحاد، هو لا يعي أنه فعليًا بدأ يحدث شيء من هذا.

كنت أتحدث مع أحد الإخوة فقال لي كيف يقول له شيخه أن من أخطر الأمور في الوقت الذي نعيشه هو الإلحاد، فقد أصبح خيارًا مطروحًا من الاختيارات.

في الماضي كان إذا حدث لشخص مثلًا ابتلاءات شديدة فربما يتوقف عن الصلاة، ولكن لا يصبح ملحدًا، الاختيارات كانت مثلًا أن يحلق ذقنه مثلًا أو يتوقف عن الصلاة ثم بعد فترة حين يواجه مشكلة يرجع يصلي يومًا ويترك عشرة، لكن أصبح من الاختيارات الآن أنه كان مثلًا مع شغل ديني و.. و.. و... ثم يقول سألحد، لا هذا لم يكن خيارًا، ولكن أصبح الآن اختيارًا من الاختيارات المطروحة أمام الشباب، كأنه يقول: ما رأيك أن تجرب الإلحاد، أي نجربه ونقرر! فأصبح من الاختيارات المطروحة.

فمهم أن يتابع الداعية ما الموجود في الواقع، فانظر إلى سيدنا لوط التقط الواقع وقال لهم أنتم تفعلون ثلاثة أمور:-

- {لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ}
- {وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}
- {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ}

{ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ } ليس فيها خلاف وتعني الفاحشة، { تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ } العلماء قالوا: أن "السبيل" الأشهر أنه الطريق، بعضهم قال { تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ } أي تمنعون التناسل لأن الاستمرار في إتيان الفاحشة يمنع التناسل، لكن هذا ليس الأصل، بل الأصل -ونحمل اللفظ على الأشهر- أن {تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ } أي -وهذا قول ابن زيد من التابعين واختاره الطبري-: أنه أي أحد يمر بالطريق، يقطعوا الطريق ويختطفوه ويفعلوا فيه الفاحشة، فأصبح فرض ثقافتهم بالقوة، مثل ما يحدث الآن، فهو لا يكتفي بعمل الفاحشة، لا بل يفرض الثقافة بحيث أنه يوصل للناس من حوله أن هذا أمر طبيعي!

بل من الأمثال التي اشتهرت "أَجْوَرُ من قاضي سدوم" أي أكثر جورًا وظلمًا، فهذا مثال إذا أردت أن تصف قاضيًا ظالمًا تقول: أظلم من قاضي سدوم.

وقاضي سدوم هذا كما جاء في قصص كثيرة، فيقال أنه إذا كان هناك مسافرًا على الطريق، يقطعه عليه شخص من هذه القرية ويرميه بالطوب فيفتح له دماغه، فالرجل بعد أن ضُرب يذهب للقاضي، فيأتي الذي ضربه يقول للقاضي: أنا أريد حقي.

الذي ضربه بالطوب هو من يقول أريد حقي، فالآخر بالتأكيد يتعجب، فيقول -المعتدي-: أنا حين رميته بالطوب خرج منه الدم، وهذا مثل الحجامة فأنقذته، هو كان محتاجًا لأن يخرج منه هذا الدم، فأريد أن تحكم لي أن أفعل فيه الفاحشة! تجد أنه لُفق له حزمة من التُّهم بسرعة وانتهى الأمر، فيقال "أجور من قاضي سدوم".

{ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ } لم يكن فقط يفعل الفاحشة، بل يفرضها كثقافة بالقوة، كما يحدث الآن، هناك دول، ولايات مثلًا في أمريكا يُفرض فيها الفاحشة وممنوع أن تنتقد هذا، "الزواج" يسمونه "الزواج المثلي" لكنه يظل فاحشة وشذوذ ولواط، أقروا ذلك في الدساتير وممنوع انتقادهم، يفرض الثقافة بالقوة.

ثم بعد ما يفرضها بالقوة، قد لا تكفي القوة فينشرها إعلاميًا: { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ } النادي هو المكان الذي يجتمع فيه الناس نهارًا فإذا خلا من الناس لم يكن ناديًا وإذا كان ليلًا كان سامرًا، {وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ } أن يصبح الأمر -حتى لا يكون في صدر أي أحد حرج من هذه الفاحشة- أمام الناس، يفعلون الفاحشة أمام الناس في مجتمعات مفتوحة، ومن يفعل الفاحشة مثلًا يأخذ جائزة أوسكار، مثل آخر واحد أخذ الجائزة لقيامه بدور شخص شاذ يقوم بالفاحشة، فيفرض هذا الأمر.

إذًا فرضه بالقوة، وفرضه إعلاميًا حتى يزيح الحرج من صدور الناس تجاه هذه القضية، ثم التعاطف عن طريق قول أنه مجرد مرض وأنه مجرد كذا.... وكسر هذا الشعور -بالحرج-، مثلما يحدث مع الإلحاد.

نشر أي فكرة باطلة سواء فكرة أو شهوة، يتم بنفس الخطوات، بنفس السيناريو، حتى يصلوا لحالة إقرار لهذا ويكون ممنوعًا نقده، يُمنع، وقد تجد الآن عالميًا أن رجالًا ذووا مناصب عالية ويصرح أنه شاذ، وأنت لا تستطيع أن تنتقده، حين يظهر في لقاءات عربية مثلًا لا تستطيع أن تنتقده، وينشر هذه الثقافة، وممنوع أن تعترض عليها.

وهذا وارد أن يحدث في السنوات القادمة ويُصدر للعالم العربي، وهناك دول تقدم القرابين سريعًا، ربما تضع هذا في الدستور: منع نقد هذا الأمر.

- لماذا أقص عليك كل هذا؟ لتعلم قوة سيدنا لوط، أنه يقف أمام هذا النظام كله ويقول لهم أنتم مخطئون، أنتم تفعلون الفاحشة، كيف استطاع رجل واحد أن يواجه كل هذا المجتمع! حتى زوجته تخلت عنه.

هل تتخيل؟! متخيل المشهد كيف استطاع رجل مثل سيدنا لوط أن يفعل ذلك؟ لماذا استطاع فعل ذلك؟ بالتأكيد بتوفيق من الله، لأنه تربى على هذا، لأنه وجد سيدنا إبراهيم يواجه المجتمع كله، وجد أن سيدنا إبراهيم ليحارب عقيدة باطلة وقف وحده أمام المجتمع كله!

وهو فعل نفس الشيء، ليحارب فاحشة وليحارب شهوة وقف وحده أمام المجتمع كله. فكيف استطاع سيدنا لوط –بتوفيق من الله– أن يواجه شهوة، وليست مجرد شهوة عادية، ليست فاحشة عادية، بل استقرت وتغلغلت في المجتمع، { لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ }، { وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ }، { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ }.

ستجد في التفاسير أقوالًا كثيرة عن قطع السبيل: هل المعنى أنهم كانوا يرمون الناس التي تمر بالطوب؟ أو أن { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ }: هي الألفاظ الفاحشة أو أفعال الفاحشة؟ أيًا كان، الله أعلى وأعلم، وما ذكرت لكم أولى بالسياق: كيف يحاولون إقرار فاحشة في مجتمع.

وكيف استطاع سيدنا لوط أن يواجه كل هذا وحده، وكيف هددهم بعذاب من الله، لذلك لما هددهم بعذاب ردوا عليه { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }.

بعض الناس قال ألم يكن ردهم قبل ذلك { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ }، فأول مرة دعاهم هددوه بالإخراج من البلد، فلما هددهم بنزول العذاب، فقالوا له { ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ }.

ولو أخذنا سياق أن سورة العنكبوت من أواخر السور المكية ومن أواخر السور التي ذكرت فيها قصة لوط عليه السلام، فكأن هذا هو آخر مشهد حدث في نقاشه مع قومه، أنهم لم يأبهوا بشيء وقالوا له: { ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ.. } لم يقل الكافرين بل { الْمُفْسِدِينَ }! أضافوا إلى الكفر انتشار الفاحشة والإفساد في الأرض.

هناك عوامل لبقاء أي أمة، وهذه سنن كونية، هناك عوامل لإبقائها وعوامل لإهلاكها، هم بدأوا يقومون بأعمال تؤدي إلى فساد الأمة، مثل الحديث المشهور حين سمع عمرو بن العاص: (لا تقوم الساعة إلا والروم أكثر الناس)[7]، فسيدنا عمرو بن العاص قال له نعم..، هو يفهم أن هناك سننًا، وأن هؤلاء فيهم صفات معينة حتى لو كانوا على الكفر تؤدي إلى بقائهم.

{قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}

{وَلَمَّا جَاءَتْ} انتقال لمشهد آخر {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ} هنا "بالبشرى" أي بمن؟ إسحاق أم إسماعيل؟ حين تقرأ سورة هود تجد فيها إسحاق، فالبشرى بمن؟ بإسحاق.

وسيدنا إبراهيم رُزق إسماعيل أولًا أم إسحاق؟ إسماعيل، أي أن سيدنا إبراهيم ترك سيدنا لوط وذهب إلى مصر بالسيدة سارة ثم أخذ أُمنا هاجر ورجع بها مرة أخرى ثم تزوج هاجر ثم أنجب إسماعيل ثم ذهب إلى الحجاز ثم رجع وبعد كل هذا بُشر بإسحاق، وكل هذا وسيدنا لوط يشتغل في الدعوة.

أي أن: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ} فهذه لا تمر بدون تفكر، بل تعرف منها كم ظل سيدنا لوط يواجه المجتمع الآخر، لم يذهب فوجد الفاحشة منتشرة فقال: لا يصح ما تفعلونه هذا!! يا رب العذاب يا رب، لا، بل أمضى سنوات –في دعوتهم–.

{ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا } جاءوا يبشرونه وبعد كِبَر، بعد أن كبر في السن وزوجته سارة كانت تتمنى الولد بل قيل أنها غارت أو هي بالفعل غارت من هاجر لما أنجبت الولد.

فبشرى عظيمة بالولد، وسيصبح نبيًا من الأنبياء، وينشغل –إبراهيم– عن كل ذلك! وسيدنا إبراهيم { يُجَادِلُنَا } كما في سورة هود { يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ } نسي البشرى وخائف على الناس، بالرغم أنهم أهل فاحشة، هذه هي نفسية الداعية.

---

[7] روى المستورد بن شدَّاد الفهريّ أنه قال عند عمرو بن العاص: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((تقوم الساعة والروم أكثرُ الناس))، فقال له عمرو: أبصِر ما تقول، قال: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلمُ الناس عند فتنةٍ، وأسرعُهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكُهم كرّة بعد فرّة، وخيرُهم لمسكين ويتيم وضعيفٍ، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم مِن ظلم الملوك))؛ رواه مسلم.

هذه نفسية الداعية الذي في سورة هود، لذلك ربنا قال { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ }، أواه جاءت في موطنين من القرآن، وجاءت مع سيدنا إبراهيم فقط.

جاءت في موطنين في القرآن: إحداها في سوة هود مع قوم لوط، ومرة في التوبة والسياق كان مع من؟ مع والده الذي على الكفر.

و"الأواه": الكثير التأوه، ففي الحالتين يتأوه على والده الكافر وعلى قوم لوط أصحاب الفاحشة، هذه نفسية الداعية أنه حزين على الناس، أنه يتمنى أن ينقذ الناس، هذه نفسية الداعية.

{إِنَّ فِيهَا لُوطًا} هذه نفسية المربي –كالتي ستأتينا الآن –هو حريص على مَن تعب فيه، قال لهم انتبهوا هناك رجل من رجال الدعوة والبذل وآمن بي وسافر معي وهاجر معي {إِنَّ فِيهَا لُوطًا}.

- في سورة هود كان يتكلم عن القوم {يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ}، أما هنا قال {إِنَّ فِيهَا لُوطًا}، لذلك العلماء اختلفوا ما معنى {إِنَّ فِيهَا لُوطًا}؟؟ ما المعنى؟ نتتبع السياق:

{وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إبراهيم بِالْبُشْرَى} أي بإسحاق قالوا بعد أن بشروه {قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ} وكأنهم يُعْلِموه؛ لأن كما قلت أن سيدنا لوط امتدادًا لدعوته، حسنًا، ولماذا يعلموه؟ يعلموه لأن الذي سافر وهو امتداد لدعوتك جاء الأجل بانتهاء هؤلاء القوم.

{إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ} لأن هؤلاء ليس فيهم أمل {وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} {إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ}

فقال إبراهيم عليه السلام: –قلنا في هود كان يجادل عن القوم، أما هنا قال– {إِنَّ فِيهَا لُوطًا}

- بعض المفسرين قال كأن إبراهيم يستفهم: "وهل بقاء لوط فيهم يمنع عنهم نزول العذاب؟" بعضهم قال أن هذا المقصد من سؤال إبراهيم. أي يريد أن يقول: "ألا يكفي بقاء لوط فيهم؟"

لذلك توجد بعض الآثار:

أن سيدنا إبراهيم سألهم: لماذا ستُنزِلوا العذاب أليس فيهم مائة؟ أي أناس مؤمنة مائة.

قالوا: لا.

فقال: ولا خمسون؟

قالوا: لا

قال: ولا عشرة؟

قالوا: لا

فمن فهم سيدنا إبراهيم –لو قبلنا هذا الأثر– أن زيادة العدد تمنع نزول العذاب، ولو تزيلوا –لو العدد قل– ينزل العذاب.

- لذلك استحضارك لهذا المعنى مهم، أن بنشرك الدين فأنت تنازع القدر بالقدر، أنت تمنع نزول العذاب، انتشار الدين يمنع نزول العذاب، فأنت تساهم في حفظ الناس وتساهم في حفظ نفسك بنشر الدين.

ف {قال إِنَّ فِيهَا لُوطًا} قالوا له نحن نعلم جيدًا بمن فيها ليس هناك أحد آمن.

- الظاهر أنه خائف، وبعضهم قال: لا، سيدنا إبراهيم لما قال {إِنَّ فِيهَا لُوطًا} كان يقصد: "وهل سيعمه العذاب معهم ثم يُجازَى بالجنة يوم القيامة؟"

- هذا قد يكون سؤالًا، أي أنه يريد أن يقول: "هل ستنجون لُوطًا؟ أم سينزل العذاب ثم هو يدخل الجنة؟" وهذا وارد أن العذاب يعم الجميع.

- أو أن سؤال إبراهيم عليه السلام: "وهل هناك فئة مؤمنة آمنت به تمنع نزول العذاب؟"

فلذلك هم -الملائكة- أجابوا على السؤالين:

قالوا له {قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا} الموجودين فيها يستحقوا العذاب، ولكن لوط سننجيه {لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ} نحن نعلم جيدًا، لم يؤمن إلا أهله بل وزوجته لم تؤمن.

انظر إلى الدقه لأنهم مُرسَلون من عند الله سبحانه وتعالى.

{لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} الغابرين قيل: الباقين، الغابر: الباقي، الزمان الغابر: أي الزمان الماضي.

قيل الغابرين: الباقين في العذاب، وقيل الباقين في القرية بعد خروج لوط، لما سيدنا لوط خرج التفتت ولم تخرج فلحقها العذاب.

- الإمام مكي بن أبي طالب في تفسيره قال: كان متوقعًا أن ربنا يقول: "إلا امرأتك كانت من الغابرات"، الغابرين هذا جمع للمذكر، فقيل لأنها كانت تُساعدهم على الفاحشة فأُلحِقَت بهم.

- وقال البقاعي -كتدقيق لُغوي- إن الغابرين ليس بمعنى الباقين وحسب، وإنما أيضًا تلحقها الغبرة: أي العذاب الذي سينزل عليها.

{وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا} الملائكة التي ذهبت إلى سيدنا إبراهيم بالبشرى، وانظر سبحان الله العظيم الملائكة التي نزلت لإهلاك قوم -أيضًا- جاءت بالبشرى لإنشاء ذريةٍ صالحة.

فربنا سبحان وتعالى قد يُهلك أقوامًا ويُنشئ أقوامًا، فالإنسان دائمًا يكون عنده أمل أن ربنا سبحانه وتعالى يهلك أقوامًا ثم يبعث أقوامًا آخرين.

- فدائمًا الإنسان يستبشر بأنه قد يأتي جيل ينشأ وربنا سبحانه وتعالى يبعث أئمة، وأن ربنا سبحانه وتعالى يصنع هؤلاء الأئمة على عينه كما في سورة القصص، أن هناك أئمة تُصْنَع وأنت لا تشعر بهم.

واقع سيدنا لوط والعذاب ينزل وهو يخرج من القرية، هو الآن في هذه اللحظة جاءت رسل بالبشرى لإنشاء دعوة أخرى، سيدنا إسحاق ثم من نسله يعقوب ثم سلالة بني إسرائيل.

{وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ} خاف عليهم وهذا حق الضيف لأنهم جاءوا في صورة شباب حِسان فخاف عليهم.

- {وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا} الزمخشري وجمهور المفسرين قالوا كلمة "ضاق ذرعًا" أشبه أيضًا بضاق ذراعه، الذرع والذراع عكس طويل الذراع، فطويل الذراع: أي يفعل ما يشاء، فهذه كناية عن طول اليد بمعنى أن الإنسان يفعل ما يريد، يتناول الأشياء البعيدة عنه، وضيق الذراع أنه لا يستطيع أن يتناول الشيء، فهذه كناية عن عجزه، غالب المفسرين قال بهذا.

- حبنكة قال معنى غريب لم أره عند غيره، قال إن أصل الكلمة في اللغة: الدابة التي يوضع عليها حمل ثقيل جدًا فتقل خطوتها ولا تستطيع السير.

فالشاهد أن لوطًا عليه السلام حمل من الهم همومًا ثقيلة وضاق ذرعًا ولم يستطع أن يفعل شيئًا، لأنه ليس معه أحد ينصره، لذلك في سورة هود قال {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ} ليس معي أحد، قيل لأنه ليس من هؤلاء القوم هو تزوج منهم فقط.

{وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا} كان يخاف عليهم، {وَقَالُوا} هم ردوا عليه {لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ} أخبروه أنهم ملائكة.

{إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} صدر الأمر والتنفيذ.

{إِنَّا} بالتأكيد، {مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ} الرجز: العذاب، وقيل أصل الكلمة اللغوي: الاضطراب الشديد، أي العذاب الذي يؤدي إلى حالة من الاضطراب الشديد، والذي مهما كان الإنسان قويًا لن يستطيع أن يقف أمام هذا العذاب.

تفاصيل العذاب جاءت في سُوَر أخرى، المؤتفكة أن هذه القرية رُفِعت وقُلِبَت وأُرسِلَت عليهم حجارة، تَنَوّع عليهم العذاب لأنهم أسرفوا على أنفسهم في الفاحشة، فكان العذاب عليهم متنوع وعذاب مختلف عن عذاب الأمم السابقة لأنهم جاؤوا بفاحشة مختلفة عن السابقين.

{إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} وجاء الجمع لأن الكل كان فاسقًا والعياذ بالله {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}.

{وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً} بعضهم قال –وأشار إلى ذلك ابن كثير– وُجود البحيرة المُنْتِنَة التي هي البحر الميت، وبعضهم اعترض وقال ليس هناك دليل قطعي أن هذا مكان إهلاكهم.

سيظل الأمر كما قلت أحداثًا تاريخية، نحن يكفينا ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى، فنحن نصدق به لأن الله أخبرنا به وكأننا نراه رأي العين، كما قال ربنا للنبي صلى الله عليه وسلم {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}.

- والنبي صلى الله عليه وسلم لم ير شيئًا لكن الله أخبره بذلك فكأنه رآه، والله سبحانه وتعالى أخبرنا بهذا المشهد، فكأننا رأينا هذه القرية التي ترفع إلى السماء وتقلب وتنزل عليها الحجارة من سجيل، كأننا نراها الآن بأعيننا لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بذلك، ونحن نصدق كلام الله أكثر من تصديقنا لأعيننا، هذا كلام من الله سبحانه وتعالى {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ}.

هذه ليست قصص، ليست أساطير، ليست كلامًا تخيليًا كما للأسف حتى بعض المسلمين يدعي هذا ويقول أنه مجرد كلام لإثارة المشاعر، مجرد قصص.

لا، هي أحداث حقيقية حدثت وهذا مهم في استشعارك للمعاني في القرآن، حين تسمع {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ} هذا قد حدث بالفعل، سيدنا موسى أيضًا لما ضرب بعصاه البحر فانشق هذا حدث بالفعل.

سيدنا إبراهيم لما خرج من النار ولم تمسه {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إبراهيم} هذا حدث حقيقة بتقدير من الله سبحانه وتعالى، هذه أحداث حقيقية حدثت {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ}.

{وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

أظننا هكذا مررنا على العناوين الرئيسية التي كنا نريد أن نتكلم عنها اليوم.

الخلاصة أن سيدنا لوط عليه السلام رجل آمن في وقت استضعاف، مسألة الكيف في أوقات الاستضعاف أهم من الكم.

أهمية وجود النموذج، لما سيدنا لوط وجد سيدنا إبراهيم يثبت فثبت، لما سيدنا لوط وجد أن سيدنا إبراهيم واجه المجتمع كله بمفرده فسيدنا لوط واجه المجتمع كله بمفرده.

وأشهر مثال على ذلك في قصة غلام الأخدود، لما عُذِّب الغلام أول مرة دل على الراهب؛ فلما جيء بالراهب وقُطِّع الراهب أمامه ورآه الغلام ثابتًا فثبت الغلام بعد ذلك.

فأُرْسِل بالغلام ليُلْقَى من فوق الجبل ثم أُرْسِل لِيُلقى في البحر وظل الغلام ثابتًا حينما رأى شيخه ثابتًا، نسأل الله السلامة والعافية! نسال الله الثبات!

- وجود النموذج يجعل الناس تثبت، الناس ترى نموذجًا ثابتًا فتقتدي به، فسيدنا لوط اقتدى بثبات إبراهيم، وهذا أحد أوجه الجمع بين القصتين فسيدنا لوط امتداد لدعوة إبراهيم، وكما أن سيدنا إبراهيم واجه مجتمعًا فيه عقيدة باطلة ظلت مستقرة وتحولت إلى نظام متشابك معقد في المجتمع صعب هدمه، كذلك لوط عليه السلام فعل، لكنه لم يواجه عقيدة باطلة فقط إنما واجه معها فاحشة.

فأنت طوال سيرك في الطريق سيواجهك شيئين:

*عقائد باطلة استقرت لمدة سنوات، وأجيال تنشأ عليها، فمُواجهتها صعبة.

*ثم يواجهك فاحشة استقرت وشهوة استقرت وانتشرت، مواجهتها صعبة.

عندك نموذج سيدنا إبراهيم ونموذج لوط والإشارة الواضحة التي جاءت للهجرة، وأن هذه إشارة للصحابة أن يُعدوا أنفسهم للهجرة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يستعملنا ولا يستبدلنا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، جزاكم الله خيرًا.